# إنتاج الطبقة: التعليم، النيوليبرالية، وصعود الطبقة الوسطى الجديدة في اسطنبول، الولايات المتحدة

**هنري روتز وإرول بلكان، بيرغَن بوكس، 2009، صفحة 156.**

جاء كتاب «إنتاج الطبقة» تحقيقا متمحورا حول العمل الذي أدى إلى تحويل مدينة اسطنبول باتجاه العولمة، من خلال التركيز على الأسرة. بدراسة معمقة للممارسة التربوية لدى الطبقة الوسطى الأعلى، وباستلهام نظريات بورديو حول رأس المال الثقافي، درس روتز وبلكان السبل التي اتبعتها هذه الشريحة الاجتماعية لتطوير استراتيجيات للتفاوض مع مناخ يتزايد عدم استقراره اقتصاديا وسياسيا بسبب إعادة الهيكلة الاقتصادية بتركيا في الثمانينيات. كانت مدينة اسطنبول موقعا طبيعيا للدراسة، نظرا لأنها كانت عبر التاريخ مركز التحول الاقتصادي والثقافي. يتضح توجه نخبة اسطنبول نحو العالمية في التأثير الأوروبي بمدارس اسطنبول الأجنبية الراقية الخاصة، حيث تفضلها غالبية الأسر في هذه الدراسة. هذه الدراسة للنخب واستراتيجياتها نحو إعادة إنتاج الطبقة الاجتماعية تعد شديدة الاهمية، لأن هذه النخب شكلت لفترة طويلة الطبقة ذات الامتيازات، وكانوا أنفسهم العناصر السائدة في التغيرات السياسية والاجتماعية بتركيا. أجري العمل الميداني في هذا المشروع على عدة مراحل مختلفة، بين عامي 1990 و1997 (وبعض المقابلات اللاحقة في 2006). كما أجري المسح الرئيس لجمع المعلومات الأساسية المتعلقة بالخصائص التعليمية والمهنية، وأسلوب الحياة للمجموعة (العينة) التي أجريت عليها الدراسة في 1993. وهكذا، يقدم الكتاب تحليلا دقيقا لأكثر الأسئلة الملحة، التي تواجه المجتمع التركي اليوم في الألفية الجديدة لحظة.

تمهد مقدمة الكتاب الطريق بوصف يجعل القارئ ينخرط في تخيل «بنية الشعور» التي تصبغ المشهد في شارع توروناچي باشي في منطقة جيهانغير، حيث الآباء والأمهات والأطفال ينتظرون بداية امتحان الصف الخامس الذي سيحدد القبول أو الاستبعاد من المدارس المتوسطة الخاصة. هذه اللحظة تلخص ضغوط السنوات العديدة من الدروس الخصوصية وتوقعات الآباء والأمهات. بالطبع الضغوط مستمرة أثناء الدراسة الثانوية والجامعية، لأن التعليم الخاص هو هدف هذه الأسر. يوضح «إنتاج الطبقة» أنه بالنسبة لهؤلاء الآباء، أصبح توفير حياة مريحة وآمنة واستدامتها أكثر

صعوبة، نظرا للتحولات السريعة والدينامية الاقتصادية والسياسية بإسطنبول؛ والتعليم فقط الذي له «قيمة مطلقة» (ص4).

تتناول بقية الكتاب مختلف العناصر التي تواجه العائلات في السياق العام. يركز الفصل الأول بإيجاز على الطبقة، باعتبارها البعد الاجتماعي والثقافي لإصلاحات الدولة النيوليبرالية وتحولها الرأسمالي. الفصل الثاني يقدم بشكل شيق للغاية عرضا تاريخيا للطرق التي تبنت بها تركيا إعادة التوزيع والخصخصة. يقرب هذا الفصل التركيز إلى مستوى المدينة، حيث نقرأ عن تأثير العولمة من خلال إدخال وسائل الإعلام الخاصة الجديدة، وأشكال السلع الأساسية، والمناطق التي تعيش فيها النخبة. الفصل الثالث يلفت انتباهنا إلى النظام التعليمي، وربط التنمية بمشاريع الحداثة والقومية العلمانية في العقود الأولى للجمهورية. ونلاحظ النفوذ العولمي المتزايد والطرق التي بدأ بها إنشاء التعليم الراقي بين عامي 1950 و1983. فمثلا، ساعدت برامج مؤسسة فورد الأمريكية ومنح برنامج فولبرايت على إيفاد المدرسين والباحثين الأمريكيين إلى تركيا.

اتضح ارتباط العولمة بإنتاج الطبقة الاجتماعية الجديدة بشكل صريح في 1983، وهي نفس السنة التي أدخلت فيها الإصلاحات النيوليبرالية الجديدة إلى تركيا، فبدأت الدولة أيضا في إجراء امتحانات المدارس المتوسطة الراقية، كوسيلة لتنظيم المنافسة المتزايدة بين أسر الطبقة المتوسطة الأعلى على دخول المدارس المتوسطة الخاصة. ويقف الفصل الرابع على عواقب هذه التحولات على الأسر ذاتها، حيث نتعرف على البنية المتغير للأسر، وقيام وصيانة الشبكات الاجتماعية الهامة، والقواعد الاجتماعية والقيم والأسرة، والزواج. ثم نستمع لآراء المشاركين في دراسة روتز وبلكان مع أمثلة دامغة توضح مشاعر وتجارب مختلف أفراد الأسرة.

ويوضح الاقتباس التالي ما تتعرض له الأمهات، بحكم مسؤوليتهن الأولى عن تعليم الأطفال من ضغوط. تقول إحدى الأمهات العاملات التي حضرت دورة تعليمية مع طفلها وصديقة لها: «بدأت الدورة في الساعة 8:30 صباحا، وجلسنا هناك. أعني، من الساعة 8:30 صباحا إلى الساعة الواحدة ظهرا. إنها ليست فترة قصيرة. كتب ملاحظات لمدة ساعتين وكتبت صديقتي بيلجا أيضا لمدة ساعتين أخريين، ثم قالت لي: «هذا صعب. فقد دونت ملاحظات كثيرة، لقد درست بجامعة هارفرد في وارتن، وأستطيع أن اكتب بسرعة، لكن يصعب على القيام بذلك هنا حقا»(ص65). ثم، وكما توضح الفصول الثلاثة الأخيرة، تعاني الأسر مشاعر منافسة شديدة دون أن يؤدي ذلك للخروج من المنظومة، بل يؤدي إلى تطوير استراتيجيات مصقولة لمحاولة التغلب عليها عمليا بمهارات وتقنيات أفضل. لقد شجع هذا، بدوره، نمو نظام السوق الخاصة في قطاع الدروس الخصوصية وإعداد التلاميذ للامتحانات .. والوضع مستمر هكذا.

تربط هذه الدراسة بين إنتاج الطبقة الاجتماعية والتشكيل الطبقي ضمن إطار نظام اقتصادي نيوليبرالي، وبين خبرات الطبقة المتوسطة الأعلى في إسطنبول بالتسعينيات. هذا التركيز القريب على الحالة يعد قوة وضعفا في آن واحد، من حيث مساهمته الكبرى في الدراسات التركية. فعندما أجريت الدراسة، كانت حدود الطبقة المتوسطة الأعلى في اسطنبول، كمجموعة اجتماعية نخبوية علمانية كوزموبوليتانية، تبدو متماسكة بشكل واضح وبديهي. والآن، لأنني أقرأ هذه الدراسة التي أجريت بأوائل ومنتصف التسعينيات، ومن وجهة نظر 2011، فإنني أرغب أن أراها في سياق لحظتها المتزامنة، لأفهم دلالتها في التسعينيات؛ وأيضا لقراءتها في ضوء أدبيات التحول السياسي والاقتصادي والاجتماعي في اسطنبول التي تكونت منذئذ. هذه الأدبيات تثير أسئلة هامة كنت أود أن أرى المؤلفين منخرطين في الإجابة عنها في النتائج.

بشكل عام، نرى الآن أن التسعينات كانت الفترة التي أصبحت خلالها الحدود الاجتماعية والاقتصادية لنخبة إسطنبول غير واضحة، لا سيما عندما بدأت سياسات الإسلاميين ونخبة اقتصادية وثقافية متدينة تلعب دورا مشهودا في المشهد الحضري الاقتصادي والسياسي والثقافي. هذه نفس الفترة التي تم فيها تقويض خطير ليس فقط للقيم العلمانية بل أيضا للهوية القومية الإثنية التركية، بسبب الهجرة من الريف إلى الحضر، وحركة الأنشطة الثقافية والسياسية الكردية، والفضح التدريجي لدور الدولة في تواريخ اضطهاد الأقليات العرقية. من هذا المنظور، ربما يشكل الناس- الذين أجريت عليهم دراسة روتز وبلكان- مجموعة معينة تستجيب لشعور متزايد بالضياع ثقافيا.

لم يشتبك الكتاب صراحة مع القيم العلمانية، والتي ربما كانت هامة للأشخاص الذين كانت ممارساتهم موضعا للدراسة. في ذلك الوقت، ربما كانت العلمانية أمرا مفروغا منه، كسمة واضحة أو أساسية لنخب إسطنبول وطبيعة العولمة في المدينة. كذلك يفيدنا جيني وايت في كتابه «التعبئة الاسلامية في تركيا» (2002)[1] أن التسعينيات كانت هي اللحظة التي استطاعت فيها الحركة الإسلامية الانتشار، بين الطبقة المتوسطة في إسطنبول؛ وتنجز بدورها تحولا في السياق الحضري الذي أجريت عليه دراسة روتز وبلكان. بمقارنة هذا العمل بدراسة أوزيوريك «الحنين إلى الحداثة» (2006)[2]، مثلا، ربما نجد أن النخب التي نقرأ عنها هنا، كان لديها تركيز شديد على التعليم، والعلاقات الاجتماعية التي يتيحها، ليس فقط كاستراتيجية للحفاظ على رفاهيتها وموقعها في سياق اقتصادي متزايد الهشاشة؛ بل وهو الأهم، للحفاظ على موقعها في مستقبل تركي علماني غير مؤكد.

في كتاب بيرنا تورام «بين الإسلام والدولة»

(1) Jenny White, *Islamist Mobilization in Turkey*. Seattle: U. of Washington Press, 2002.

(2) Esra Özyürek, *Nostalgia for the Modern*. Durham, NC: Duke University Press, 2006.

(2006)[1]، نجد أن فترة التسعينيات هي سياق علاقات جديدة ومركبة بين الحركات الإسلامية والدولة التركية. يتناول أحد فصول كتابها التعليم، معتبرا إياه وسيلة من خلالها تمكنت الجماعات الإسلامية المعتدلة مثل حركة كولن من أن تتحدى الهوية العلمانية للدولة في التسعينات. قراءة «إنتاج الطبقة» مع عملها- جنبا إلى جنب- يجعلني أتساءل عن مغزى ودوافع تنافس النخبة للفوز بتعليم المدارس الخاصة الأجنبية. يبدو أن الناس الذين قابلهما روتز وبلكان كانوا معنيين باكثر من مجرد الحفاظ على وضع اقتصادي نخبوي من شأنه توفير «حياة مريحة» (ص ix). فربما يعكس اهتمامهم بـ«الراحة» عدم ارتياح مكثف إزاء التحول الاجتماعي والسياسي الذي يحدث من حولهم، لكن ربما أصبح استمرار ميراثهم لهوية تركيا العلمانية موضعا للشك، خلال تلك الفترة.

**عرض: إيمي ميلز**

(3) Berna Turam, ***Between Islam and the State. Palo Alto***, CA: Stanford University Press, 2006